

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ
دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم: 88 - 91]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِبْطَالُ الشَّفْعَاءِ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ،
وَكَانَ الْوَلَدُ أَقْرَبَ شَفِيعٍ، أَبْطَلَ هُنَا دَعْوَاهُمْ نَافِيًا مَا يَكُونُ مِنَ الشَّفْعَاءِ
خَاصَّهُمْ وَعَامَّهُمْ؛ فَيَكُونُ كُلُّ عَزٍّ أَرَادُوهُ بِشَفَاعَةِ آلِهَتِهِمْ مُرَدودًا، وَقَدْ
ادَّعَوْا مِنْ قَبْلُ أَنَّ لَهُ وَلَدًا سَبْحَانَهُ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْقَوْلِ وَالْإِفْتِرَاءِ
عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّ ثِقَلَهُ لَا تَحْمِلُهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ؛
لَأَجْلِ أَنْ دَعَوْا لَهُ وَلَدًا، وَكُلَّ مَا سِوَاهُ هُوَ مِنْ نَعْمِهِ وَأَفْضَالِهِ^(١).

لَمَّا أَبْطَلَ مَطْلُقَ
الشَّفْعَاءِ وَكَانَ
الْوَلَدُ أَقْرَبَ
شَفِيعٍ أَبْطَلَ
دَعْوَاهُمْ بِنِسْبَةِ
الْوَلَدِ إِلَيْهِ
سَبْحَانَهُ

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿إِذَا﴾: أَصْلُ الْأَدِّ: الشَّدَّةُ وَالثَّقَلُ^(٢) الْإِدُّ: الْأَمْرُ الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ،
يُقَالُ: أَدْنِي الْأَمْرَ، يُؤْدِنِي، أَدَّا: إِذَا أَثْقَلَنِي وَعَظُمَ عَلَيَّ^(٣). وَيَأْتِي بِمَعْنَى
الْغَلَبَةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْإِدُّ أَيْضًا: الْقَوِيُّ، وَيُسْتَعْمَلُ لِمَعَانِي أُخْرَى مِنْهَا: الْعَجَبُ،
وَالْمُنْكَرُ، وَالشَّنِيعُ، وَالصَّعْبُ، وَجَمْعُهُ: إِدَدٌ، وَأَدَادٌ^(٤)، وَالْمُرَادُ بِالْإِدِّ فِي
الْآيَةِ: الْأَمْرُ الْمُنْكَرُ، الَّذِي يُثْقَلُ كَاهِلُ صَاحِبِهِ، وَيَقْصَمُ ظَهْرُهُ^(٥).

(2) ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: (فَطَرَ) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَإِبْرَازِهِ^(٦)،
فَطَرَ الشَّيْءَ يَفْطُرُهُ فَطْرًا فَانْفَطَرَ وَفَطَرَهُ: شَقَّهْ، وَتَقَطَّرَ الشَّيْءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 248 / 12.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَدَّ).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (أَدَد).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أَدَد).

(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 771 / 8.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فَطَرَ).

تَسْقَى، وَالْفَطْرُ: الشَّقُّ، وَجَمْعُهُ فُطُورٌ، وَيُقَالُ أَيْضًا: فَطَرَ الْبَيْتَ، يَفْطُرُهَا، فَطْرًا، أَي: شَقَّهَا وَحَفَرَهَا، وَالْفَطْرُ: الْخَلْقُ وَالْإِنْشَاءُ، يُقَالُ: فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ، أَي: خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ⁽¹⁾ وَالْمُرَادُ بِالتَّفْطِيرِ فِي الْآيَةِ: الْإِنْشِقَاقُ، وَهُوَ مُطَاوِعُ التَّفْطِيرِ الَّذِي هُوَ تَكَرُّرُ الشَّقِّ⁽²⁾.

(3) ﴿وَتَنْشِقُ﴾: (شَقَّ) أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعِ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ يَحْمَلُ عَلَيْهِ وَيُشَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الْإِسْتِعَارَةِ، تَقُولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشَقُّهُ شَقًّا، إِذَا صَدَعْتَهُ، وَبِيَدِهِ شَقُوقٌ، وَبِالدَّابَّةِ شَقَاقٌ، وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ، وَالشَّقَّةُ: شَطِئَةٌ تُشْطَلِي مِنْ لَوْحٍ أَوْ خَشَبَةٍ⁽³⁾، وَمَنْ الْبَابِ: الشَّقَاقُ: الْخِلَافُ وَالْعِدَاوَةُ، يُقَالُ: شَاقَهُ، مُشَاقَّةً وَشَقَاقًا: إِذَا خَالَفَهُ⁽⁴⁾، وَالشَّقُّ أَيْضًا: النَّاحِيَةُ مِنَ الْحَبْلِ، وَهُوَ الشَّقِيقُ أَيْضًا، يُقَالُ: هَذَا أَخِي وَشَقِيقِي وَشَقُّ نَفْسِي، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ مُشَبَّهٌ بِخَشَبَةٍ جُعِلَتْ شَقَّتَيْنِ، وَالشَّقَّةُ: مَسِيرٌ بَعِيدٌ إِلَى أَرْضٍ نَطِئَةٍ، تَقُولُ: هَذِهِ شَقَّةٌ شَاقَةٌ⁽⁵⁾ وَالْمَقْصُودُ بِالشَّقِّ فِي الْآيَةِ: الْإِبْعَادُ بَيْنَ مَا كَانَ مُتَّصِلًا⁽⁶⁾.

(4) ﴿وَنَحْرٌ﴾: (خَرَّ) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ اضْطِرَابٌ وَسُقُوطٌ مَعَ صَوْتِ⁽⁷⁾ فَالْخَرِيرُ: صَوْتُ الْمَاءِ وَالرَّيْحِ وَالْعُقَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْقُطُ مِنْ عَلَوٍّ⁽⁸⁾، وَخَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا يَخْرُ خُرُورًا، أَي: سَقَطَ سَقُوطًا يُسْمَعُ مِنْهُ خَرِيرٌ⁽⁹⁾ وَخَرَّ الْحَجَرُ يَخْرُ خُرُورًا: صَوَّتَ فِي انْجِدَارِهِ، بِضَمِّ الْخَاءِ، مِنْ يَخْرُ، وَالْخَارُ: الَّذِي يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ مَكَانٍ لَا تَعْرِفُهُ؛ يُقَالُ: خَرَّ عَلَيْنَا نَاسٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ، وَخَرَّ الرَّجُلُ: هَجَمَ عَلَيْكَ مِنْ مَكَانٍ لَا تَعْرِفُهُ⁽¹⁰⁾ وَالْمُرَادُ بِالْخُرُورِ فِي الْآيَةِ: السُّقُوطُ، أَيْ سُقُوطُ الْهَدَمِ، وَهُوَ أَنْ يَتَسَاقَطَ شَيْءٌ وَقِطْعًا⁽¹¹⁾.

(5) ﴿دَعْوًا﴾: (دَعَا) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيْءُ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ، تَقُولُ: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعَامِ بِالْفَتْحِ، وَالدَّعْوَةُ فِي النَّسَبِ بِالْكَسْرِ، قَالَ

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (فطر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170، و 25/ 30.

(3) ابن فارس، معاني اللغة: (شَقَّ).

(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شَقَّ).

(5) ابن فارس، معاني اللغة: (شَقَّ).

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 131.

(7) ابن فارس، معاني اللغة: (خَرَّ).

(8) ابن سيده، للحكم، والراغب، المفردات: (خَرَّ).

(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرر).

(10) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).

(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70، و 71.

أَبُو عُبَيْدَةَ: يُقَالُ فِي النَّسَبِ دَعْوَةٌ، وَفِي الطَّعَامِ دَعْوَةٌ⁽¹⁾، وَالدَّعْوَى: الْأَدْعَاءُ، قَالَ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا﴾ [الأعراف: 5]⁽²⁾ قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَدْعَاءُ أَنْ تَدْعِيَ حَقًّا لَكَ أَوْ لغيرِكَ⁽³⁾ تَقُولُ ادْعَى حَقًّا، أَوْ بِاطِلًا، وَالدَّعْوَى أَيْضًا: الدُّعَاءُ، قَالَ: ﴿وَأَخِرُ دَعْوُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10]⁽⁴⁾ وَالْمَقْصُودُ بِ﴿دَعْوًا﴾ فِي الْآيَةِ: نَسَبُوا، وَهُوَ قَوْلٌ يَطْلُبُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِثْبَاتَ حَقٍّ عَلَى غَيْرِهِ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يَسْتَطِرِدُ السِّيَاقُ الْقِرْآنِي، إِلَى حِكَايَةِ أَقْوَالٍ أُخْرَى، مِنْ أَقْوَالِ الْكَافِرِينَ الْبَاطِلَةِ، وَهِيَ زَعْمُهُمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَدًا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَهُ، لَقَدْ قُلْتُمْ قَوْلًا عَظِيمًا مُنْكَرًا، بِافْتِرَائِكُمْ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَهُ وَلَدًا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ عَلَى عَظَمَتِهَا وَإِحْكَامِهَا تَتَشَقَّقُ قِطْعًا عِنْدَ سَمَاعِهَا ذَلِكَ الْقَوْلَ الْعَظِيمَ الْمُنْكَرَ؛ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ، وَإِجْلَالًا لَهُ سُبْحَانَهُ، وَتَكَادُ الْأَرْضُ تَتَصَدَّعُ؛ تَعْظِيمًا لَهُ سُبْحَانَهُ، وَتَكَادُ الْجِبَالُ عَلَى صَلَابَتِهَا تَسْقُطُ سَرِيعًا، فَتَنْدَكُ وَتَتَفَتَّتْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ الْمُشْرِكِينَ نَسَبُوا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا⁽⁵⁾.

❁ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

بلادة عطف القصة على القصة:

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ تَدَلُّ عَلَى الْعُطْفِ؛ فَهُوَ عُطْفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَعَدَّا مَا مِثُّ﴾ [مِزْم: 66]، أَوْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾،

تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ،
وَإِثْبَاتُ الْعِبُودِيَّةِ
الْخَالِصَةِ لِلَّهِ،
وَإِنْكَارُ اتِّخَاذِ اللَّهِ
وَلَدًا

الْمَعْنَى السِّيَاقِيَّةُ
أَخَذَ بَعْضُهَا
بَعْرَى بَعْضٍ

(1) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (دَعْو).

(2) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ، وَالسَّمِينُ، عَمْدَةُ الْحِفَافِ: (دَعَا).

(3) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (دَعْو).

(4) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ: (دَعَا).

(5) ابْنُ جَرِيرٍ، جَامِعُ الْبَيَانِ: 635/15، وَابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: 265/5، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ

وَالْتَنْوِيرُ: 169/16، وَالسَّعْدِيُّ، تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 501.

تتميمًا لحكاية أقوالهم بأنَّ لله ولدًا، وقول المشركين إنَّ الملائكة بناتُ الله⁽¹⁾؛ فهي من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ مشتركون في الضَّلالةِ، فكان أنَّ حكى الحقَّ سبحانه جنائيتهم، وما ادَّعوه بعدَ جنايةِ عبدةِ الأصنام⁽²⁾.

دلالة التعبير بالماضي ﴿وَقَالُوا﴾:

إدانة عقديَّة
ملزمة لقليل
الباطل

التعبيرُ بالفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ دالٌّ على الثبوتِ والتَّحَقُّقِ فلا يستطيعون إنكارَ ما قالوه من إشراكهم بالله باتخاذِهِ الولدَ، وأن جعلوا الملائكة بناتِهِ، تعالى اللهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، وفي ذلك إدانةٌ عقديَّةٌ لما صدر عنهم من قيل الباطلِ.

تعيين مرجع الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾:

الضميرُ راجعٌ
إلى المشركين
أصالةً وغيرهم
ممن شابههم
تبعا

يرجع الضميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُوا﴾ إلى هؤلاءِ الكفرة بعد قولهم الشركيِّ وإنكارهم البعث والنُّبُوَّة⁽³⁾؛ للإشارةِ إلى أنَّ قولَ المشركين هذا ليس محضُ إخبارٍ عنهم، أو تعليمهم، ولكن تفضيلاً لقولهم، وتشنيعاً له⁽⁴⁾. ويشملُ الضميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُوا﴾ جميعَ من أطلقَ هذا القولَ الباطلَ، وتقوَّة به سواءً أكانَ قولَ اليهودِ في عُزيرٍ، والنَّصارى في المسيح، والمشركين في الملائكة⁽⁵⁾.

بلاغة التعريض بالنَّصارى:

مشابهة
النَّصارى
للمشركين في
نسبة الولدِ إلى
الله

في عودِ الضميرِ في الفعلِ: ﴿وَقَالُوا﴾ على المشركين عامَّةً، تعريضٌ بالنَّصارى لمشابهتهم المشركين في أنَّهم نسبوا الولدَ لله تعالى، وهو تكلمةٌ لما أبطله الحقُّ سبحانه من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ [مَزِيَم: 35]⁽⁶⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 196 / 16.

(2) ابن عجيبة، البحر اللديد: 364 / 3.

(3) ملا حويش، بيان المعاني: 178 / 2.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 169 / 16.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 73 / 9.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 16.

نكتة التعبير بالقول عن الاعتقاد:

فعل القول في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ دالٌّ على الاعتقاد واليقين من لدن هؤلاء؛ فقولهم مبنيٌّ على الإيمان بذلك، والاعتقاد بوقوعه، فلم يصدر عنهم هذا القول إلا تأييداً لفظياً لما عبده حقيقة من غير الله تعالى كالمسيح ونحوه، فهو كناية عن معتقدتهم.

دلالة جمع الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾:

أسند فعل القول إلى الواو الدال على الجمع؛ لأنَّ القائلين جمعٌ، وهم مشركو العرب بقولهم: الملائكة بناتُ الله، وهم اليهود بقولهم: عزيزُ ابن الله، والنصارى بقولهم: المسيح ابن الله؛ فالفعل ﴿وَقَالُوا﴾ يشمل هؤلاء القائلين⁽¹⁾ جميعاً.

سرّ إيتار صيغة الاتخاذ:

صيغة (أخذ) إذا لم تكن ثلاثية مجردة بأن دخل عليها تاء الافتعال؛ فإنَّ المعنى يصبح محصوراً في الجعل مع إضافة هذا الجعل إلى المتخذ نفسه بأن يخصَّ هو الشيء المتخذ بالولاء، أو الاستئثار به⁽²⁾؛ فهم متخذوه من عند أنفسهم متكلفين في القيام به، مجتهدين في إثباته.

وجاء النظم بلفظ ﴿اتَّخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ تعريضاً بالاستهزاء بهم بأنَّ كلامهم لا يلتزم لأنهم أثبتوا ولداً للرحمن، ويقولون اتَّخَذَهُ الرَّحْمَنُ، والاتخاذ الاكتساب وهو ينافي الولدية؛ إذ الولدية تولدُ بدون صنع، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة، وهذا التخالف هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع، وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده كما يقول قائل: القتلُ جنايةٌ عظيمةٌ فلا تكفر مثل الردّة⁽³⁾.

القول كناية عن
الاعتقاد

القائلون جمعٌ
وهم مشركو
العرب واليهود
والنصارى

أمانة فساد
اعتقادهم
زعمهم أنَّ الله
اتَّخَذَ وَلَدًا بتكلف
عمل زائد

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 261/7.

(2) الطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 355/2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 684/1.

دلالة الماضي في الفعل «اتَّخَذَ»:

تقبيح دعوى
للشركين
بزعمهم الباطل
بتحقيق وثبوت
ما افتروه

لما أراد المشركون تحقيق بغيتهم في التَّجَنِّي على الحقِّ سبحانه، والافتراء عليه بما ينصرُّ مذهبهم، عبَّروا بالفعل الماضي «اتَّخَذَ»، وكأنَّ الأمر حاصل لا محالة، وفي ذلك تبيُّت وتقبيح لدعواهم التي ساقوها من غير دليل، وهي محض افتراء وبهتان، ولو سيق الكلام بالفعل المضارع لكان أقلَّ شناعة؛ لأنَّه محتمل الوقوع، فالكلام هنا جارٍ على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيغيِّر كيانها.

بلاغة اختيار اسم «الرَّحْمَنُ» دون اسم الجلالة:

من أنكر معرفة
الرَّحْمَنِ كيف
يدَّعي معرفة
اتخاذهِ ولداً

لما أنكر المشركون لفظ «الرَّحْمَنُ»، ولا يقرُّون به، وما كان من شأن إنكارهم له بقوله تعالى حكايةً عنهم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟» [الفزقان: 60]، لما كان ذلك كذلك ذكر اسم الرَّحْمَن، ونصَّ عليه هنا من دون اسم الجلالة؛ قصدًا لإغاثتهم بذكر الاسم الذي أنكروه، وإيماءً إلى منافاة وصف الرَّحْمَن بقوله تعالى: «وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا»⁽¹⁾، أي: (الرَّحْمَن الذي ما عرفتموه هو الرحمن الذي ادَّعيتُم أنَّه اتخذ ولداً).

غرض تنكير «وَلَدًا»:

لاشتمال الإنكار
والنفي لكل
افتراءٍ حاصلٍ

والتعبير بالولد منكراً في قوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»؛ لاشتمال الإنكار والنفي لكل ما زعم أنَّه ولدٌ لله تعالى عما يقولون علواً كبيراً؛ فإنَّ اليهود قالوا: إنَّه عزيز، وقالت النَّصارى: إنَّه المسيح، وقالت مشرقة العرب: إنَّها الملائكة⁽²⁾.

توجيه القراءات في «وَلَدًا»:

لا يستنكف
الكافر أن يُلقي
الفرية على
الواحد الأحد

في قوله تعالى: «وَلَدًا» قرأ حمزة والكسائي «وَلَدًا» بضم الواو وإسكان اللام⁽³⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 16.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 248 / 12.

(3) الداني، جامع البيان: 1346 / 3.

فعلى قراءة الجمهور (الْوَلَدُ) اسم جمع لمفرده، أمّا قراءة الضَّمّ والسَّكُونِ (وُلْدٌ) فهو جمع مكسّر جمع (وَلَدٌ) مثل (أَسَدٌ) و(أُسْدٌ)⁽¹⁾، والقراءتان متكاملتان تكمل إحداهما الأخرى؛ فالولد على قراءة الجمهور بمعنى اسم الجمع، وعلى قراءة غيرهم دال على الجمع.

ومن لطيف التوجيه هنا قول الأخفش إن (الولد) بالفتح: الابن والابنة، و(الولد) بالضم: الأهل⁽²⁾، وقد رمى المشركون الذات العلية بهاتين الفريتين في محكم التنزيل. فأدّت كلُّ قراءةٍ وظيفتها في خطاب الناس.

بلادة فصل جملة ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾:

جاءت جملة ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ مفصولة عما سبقها من كلام؛ لأنّها جملة مستأنفة تبين ما تقتضيه جملة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ من التبشيع والتفطيع والتّقييح⁽³⁾، ولأنّها ردّ لمقاتلتهم المنكرة الباطلة، وتهويل منها؛ فإنّهم قد بلغوا بذلك القول غاية الوقاحة، ونهاية الجهل، وقصارى الجراءة⁽⁴⁾.

بلادة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وفائدته:

لَمَّا كَانَ خُطَابُهُ غَيْبَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وَجَّهَ كَلَامَهُ إِلَيْهِمْ مَبَاشَرَةً بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ فِي التَّفَاتِ فِي الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ، يَرْمِي إِلَى إِبْلَاغِهِمُ التَّوْبِيخَ بِطَرِيقٍ شَدِيدِ الصَّرَاحَةِ بِمَا لَا لِبَسَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ الْمَرَادِ⁽⁵⁾، عَلَى أَنْ قَائِلًا مِثْلَ قَوْلِهِمْ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُوَبِّخًا، وَتَوْبِيخِ الْحَاضِرِ أَبْلَغُ فِي

جملة مستأنفة
لبيان شناعة
وفظاعة
دعواهم اتّخاذ
الرحمن ولداً

الإيماء إلى
تناهي الغضب
في بيان اجترائهم
وكبير افتراءهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 159 / 16.

(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 92 / 2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 16.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 282 / 5.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 16.

الإهانة من الغائب⁽¹⁾، وفيه إيماءٌ إلى تناهي الغضب، وشِدَّتْهُ مِنْهُ تعالى⁽²⁾، وفيه زيادة التسجيل على قائلِي هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه.

وفائدةُ هذا الالتفات تحقيق غرضَيْنِ: **الأول**: تَثْبِيْتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَقِيدَةِ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَيَدْخُلُ فِي بَابِ الْإِقْبَاضِ وَالتَّنْشِيطِ، **الثاني**: تَأْنِيْبُ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا أَمْرًا بِالْغِ الْكَارَةِ وَالْفُضَاعَةِ وَالشَّنَاعَةِ، مَعَ الْاِقْتِصَادِ وَالْإِجَازِ فِي الْعِبَارَةِ⁽³⁾.

نوعُ اللَّامِ ودلالاتها:

فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾؛ لَمَّا أَرَادَ الْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُمْ أَتَوْا شَيْئًا فَظِيْعًا، وَقَوْلًا عَظِيمًا بِاتِّخَاذِهِ سُبْحَانَهُ وَلَدًّا، جَاءَ بِاللَّامِ الْوَاقِعَةِ فِي جَوَابِ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (وَعَزَّتِي)⁽⁴⁾؛ فَالْقِسْمُ يُوْتِي بِهِ لَمَّا عَظُمَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا أَعْظَمَ مِمَّا أَتَوْا بِهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْفُظِيعِ الْعَجِيبِ الْمُنْكَرِ الَّذِي تَقْشَعِرُّ لَهُوْلَهُ الْأَبْدَانُ⁽⁵⁾.

بلَاغَةُ التَّوْكِيدِ بِ﴿لَقَدْ﴾:

ادْعَاؤُهُمْ اتِّخَاذَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ الْوَلَدَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْوَالِ وَأَنْكَرِهَا، وَمِمَّا قِيلَ كَذِبًا وَزُورًا⁽⁶⁾؛ فَكَانَ وَصْفُهُ بِالشَّيْءِ الْعَظِيمِ الْعَجِيبِ مِمَّا بِهِ حَاجَةٌ لِلتَّوْكِيدِ؛ فَجَاءَ بِ﴿لَقَدْ﴾ الَّتِي تَفِيدُ التَّوْكِيدَ وَالتَّحْقِيقَ⁽⁷⁾؛ لِبَيَانِ بَشَاعَةِ مَا ارْتَكَبُوهُ، وَفُضَاعَةِ مَا نَسَبُوهُ.

مُنَاسَبَةُ اسْتِعْمَالِ فِعْلِ الْمَجِيءِ:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ آثَرَ اسْتِعْمَالِ فِعْلِ الْمَجِيءِ

قَسَمٌ دَالٌّ عَلَى
فُضَاعَةِ مَا جَاؤُوا
بِهِ وَعَظْمَةِ مَا
نَطَقُوا بِهِ

تَوْكِيدٌ صَدُورِ
الْفُضَائِعِ يَزِيدُهَا
شَنَاعَةً وَبَشَاعَةً

الْاِفْتِرَاءُ عَلَى
دَرَجَاتٍ مِنْهَا
الْيَسِيرِ وَمِنْهَا
الصَّعْبِ الْعَسِيرِ

(1) قحطان، الالتفات في البلاغة العربية، ص: 180.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 248 / 12.

(3) اللبداني، البلاغة العربية: 493 / 1، وينظر: يحيى العلوي، الطراز: 73 / 2.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 248 / 12.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 73 / 9.

(6) السمرقندي، بحر العلوم: 387 / 2.

(7) ابن مالك، شرح التسهيل: 29 / 1.

على فعلِ الإتيانِ، والسّرّ في هذا الاستعمالِ أنّ المجيءَ يستعملُ لما فيه صعوبةٌ ومشقةٌ ولأَيٍّ⁽¹⁾، ولَمَّا كَانَ ما جاؤوا به شيئاً عظيماً منكراً كَانَ من المناسبِ التعبيرِ عنه بالمجيءِ؛ فَإِنَّهُ كاشَفُ أنَّ صدورَ مثلِ هذا الأمرِ لم يكن سهلاً؛ فَإِنَّهُ ما كَانَ أن يُنسَبَ الولدُ إليه سبحانه، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً؛ إلا بطول تفكيرٍ وقوة افتراء، فلمَّا تمكَّنَ منهم الافتراء جاؤوا به.

دلالة جمعِ الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾:

معنى ما جاؤوا به هوَ دعواهم باتّخاذِهِ ﷺ الولدَ، وأنّ فاعلي هذا الفعلِ جمعٌ، منهم اليهودُ والنّصارى والمشركون من العربِ⁽²⁾ وغيرهم؛ فقد جعلَ الفاعلَ جمعاً بقوله: ﴿جِئْتُمْ﴾ تعبيراً عن تلكَ الجموعِ، وتقريباً لما كَانَ من فعلها الجمعيّ.

بلادةُ التعبيرِ بالماضي ﴿جِئْتُمْ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾؛ للدّلالةِ على وقوعِ الحدثِ وتحقّقه على وجه اليقينِ بلا ريبٍ أو شكٍّ، وفيه ذمٌّ لفعلهم هذا، وكمالُ السّخطِ الواقعِ عليهم؛ فالمعنى أنكم فعلتمْ فعلتكم هذه التي تكادُ السّمواتُ يتفطرنَ منها؛ لقبجها وعظمها، فهم قالوا ابتداءً، ثم تحول قولهم إلى أفعالٍ واعتقاداتٍ يدافع عنها.

فائدةُ تعديةِ فعلِ المجيءِ بذاته:

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ تعدّى الفعلُ ﴿جِئْتُمْ﴾ إلى المعمولِ ﴿شَيْئًا﴾ من غيرِ واسطةِ حرفِ الجرِّ، وهو من بابِ الحذفِ والإيصالِ؛ فالمعنى جِئتم بشيءٍ إدّ، أي: فعلتمْ أمراً عجبياً منكراً بالغَ العظيمةِ⁽³⁾، وفائدته تصويرُ أنّهم جاؤوا الشّيءَ ذاته؛ فهم صنعوه وفعلوه بعد أن لم يكن موجوداً.

المفترون جمعٌ
من اليهودِ
والنّصارى
والعربِ

الأفعالُ
المتحقّقةُ أشدُّ
ذمّاً من مجردِ
الأقوالِ

بيانُ أنّ المفتريين
فعلوا الافتراء
بعد أن لم يكن
موجوداً

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 97.

(2) السيوطي، الدر المنثور: 3/ 334.

(3) الألوسي، روح المعاني: 8/ 454.

دلالة تنكير ﴿شَيْئًا﴾:

في تنكير ﴿شَيْئًا﴾ دلالة على التعظيم والتهويل لهذا الافتراء والبهتان، الذي اضطربت له السموات والأرض حتى كادت أن تزولا تقطراً وتشققاً وهذا.

بلادة الوصف بـ ﴿إِذَا﴾:

لما كانت مقالتهم تلك من الشناعة والقبح ما لا يحيط به الوصف عبّر عن ذلك بالإد، ومعناه الشيء العجيب العظيم المنكر، ومنه الإدّة بمعنى الشدة والثقل⁽¹⁾؛ فبدل اللفظ على التناهي في المنكر، والغاية في الفظاعة، وهو أمر مستبشع ثقيل من أدّه الأمر، إذا أثقله، ولم يقو على تحمله⁽²⁾، وهو المناسب لافتراءهم، وهذا اللفظ من أفراد القرآن الكريم، وذكر في معناه: العجب، أو هو المنكر العظيم، والآد بمعنى الشديد، وأدني الأمر وأدني أثقلني⁽³⁾، فهو قول منهم منكر ثقيل تكاد أن تتفطر منه السموات، وتشقق الأرض.

ولما كان الإدّ هو الداهية، أو الشيء العظيم أجرى الكلام على المبالغة تهويلاً وتخويفاً من فظاعة هذا القول؛ بما يجعله يبلغ الجمادات العظيمة؛ فيقلب جوهرها، ويغير صميمها، ويبدل كيائها⁽⁴⁾.

سرّ فصل جملة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾:

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ إما أن يكون صفةً لإدّا، أو جملة مفصولة عما سبقها من كلام؛ لأنها استئناف لبيان عظيم شأنه في الشدة والجسامة والهول⁽⁵⁾ ناشئ عن سؤال مفترض

الافتراءات
النادرة العجيبة
تناسبها ألفاظ
غريبة

استئناف بياني
لتقرير عظيم
شأنه في الشدة
والهول

(1) الزمخشري، الكشاف: 44/3.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9193/15.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 566/21.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 171/16.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 282/5.

عن وصفِ مقاتِلِهِم بِالْإِدِّ، أَنْ: ماذا يحصلُ من مقاتِلِهِمِ الْعَظِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ تِلْكَ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ السَّمَوَاتِ تَكَادُ تَتَفَطَّرُ مِنْهُ.
وَلَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ تقريرٌ وَتَحْقِيقٌ لَكُونِهِ إِدًّا، فَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَهُ، وَسَبَبٌ لَهُ، فَمُقَارَبَةٌ تَفَطَّرِ السَّمَوَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ أَطْلَقُوا تِلْكَ الْكَلِمَةَ الشَّنِيعَةَ، فَلَمَّا كَانَ كَالْتَّأَكِيدِ فَصَلَ الْجُمْلَةَ⁽¹⁾.

بِلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِفَعْلِ الْمُقَارَبَةِ (كَادُ):

مَعْنَى فَعْلٍ ﴿تَكَادُ﴾ مُقَارَبَةُ الشَّيْءِ، وَدُنُو حُصُولِهِ، أَيْ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَارِبٌ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ غَضَبًا مِنْهُ لِمَا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْهَوْلِ، وَلَنْ تَقْوَهُ بِهَا، وَلَمْ يَسْتَغْظَمْهَا⁽²⁾؛ فَالْجُمْلَةُ هُنَا مِنْ بَابِ الْإِسْتِعَارَةِ؛ لِبَشَاعَةِ وَعَظَمِ هَذَا الْقَوْلِ الْمُنْكَرِ، فَهَذَا هُوَ حَقُّهُ لَوْ قُدِّرَ لِلْجُمَادَاتِ أَنْ تَفْهَمَ قَدْرَهُ⁽³⁾.

بِلَاغَةُ جَمْعِ ﴿السَّمَوَاتُ﴾:

جَمَعَ السَّمَوَاتِ لِكُونِهِنَّ سَبْعًا، وَتَعْدَادُهَا فِي سِيَاقِ الْآيَةِ، وَنِسْبَةُ التَّفَطَّرِ إِلَيْهِنَّ يَرَادُ بِهِ شِدَّةُ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ، لِهَوْلِ مَا ادَّعَوْهُ، وَعَظِيمِ مَا افْتَرَوْهُ؛ فَالْمُتَفَطَّرُ لَيْسَتْ سَمَاءً وَاحِدَةً، بَلْ هِيَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ؛ فَفِي إِسْنَادِ التَّفَطَّرِ إِلَى جَمِيعِ السَّمَوَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى هَوْلِ مُقَالَةِ السَّوِّءِ مِنْهُمْ، بِمَا يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ جَمِيعًا لَا تَسْلَمُ مِمَّا يَحْصِلُ لَهَا، حَتَّى قِيلَ إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ الْمُتَقَوِّلِينَ كَادُوا أَنْ يَقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ⁽⁴⁾.

نَكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِمُفْرَدَةِ التَّفَطَّرِ:

التَّعْبِيرُ بِالتَّفَطَّرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَفَطَّرَنَّ مِنْهُ﴾ عَلَى مَعْنَى "يَتَشَقَّقَنَّ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى مِنْ عِظَمِ ذَلِكَ الْأَمْرِ"⁽⁵⁾؛ فَالْفِعْلُ دَالٌّ عَلَى التَّكْثِيرِ كِنَايَةً عَنْ هَوْلِ مُقَاتِلَتِهِمْ وَبَشَاعَتِهَا.

لَوْلَا رَحْمَةُ
اللَّهِ لَانْفَطَرَتْ
السَّمَوَاتُ مِنْ
عَظِيمِ الْقَوْلِ

الإِشَارَةُ إِلَى
وَحِدَةِ السَّمَوَاتِ
فِي الْغَضَبِ لِأَمْرِ
اللَّهِ تَعَالَى

(1) الْقَوْنُوِي وَابْنُ التَّمْجِيدِ، حَاشِيَتَانِ عَلَى تَفْسِيرِ الْبِيضَاوِيِّ: 298 / 12.

(2) الرَّمْخَشَرِيُّ، الْكُشَافُ: 44 / 3.

(3) أَبُو حَيَّانٍ، الْبَحْرُ الْحَيْطُ: 300 / 7.

(4) ابْنُ عَطِيَّةٍ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ: 34 / 4.

(5) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 282 / 5.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾:

استحضار
الصورة فكأن
تفطر السموات
محسوس
مشاهد الآن

التعبير بصيغة المضارع المضعف في قوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهي صيغة دالة على التجدد والاستمرار⁽¹⁾ إن وقعت، وهي تصور قوة الحدث وتكراره، واستحضار الصورة؛ فكأن مقالتهم القبيحة المنكرة تلك أحدثت تفتراً في السماوات يشاهده ويشعر به كل من سمع تلك المقالة الشنيعة.

بلغة الكناية في لفظ التفطر والانشقاق:

في فضاة
الاعتقاد الباطل
خرب العالم
وتفكك نظامه

لولا حلمه تعالى، ولطفه بعباده، وعدم معاجلتهم بالعقوبة لكان من فضاة تلك المقالة السوءى في استجلاب الغضب والسخط، أن خرب العالم، وبددت قوائمه من سماوات وأرضين بالانفطار والانشقاق، بمدعاة الغضب على من نطق بذلك القول المنكر العظيم⁽²⁾. وجاء بجمليتي تفتّر السموات، وانشقاق الأرض كناية عن هول تلك المقالة الشنعاء، واستعظاماً لها؛ وتصويراً لأثرها في الدين؛ فإنها تهدم أركانها، وتقوض قواعد، وأن مثل أثرها في المحسوسات مثل الأجرام العظام التي هي قوام العالم؛ فيصيبها الخراب انفطاراً وانشقاقاً وخراباً⁽³⁾.

توجيه القراءات القرآنية:

القراءات
القرآنية
متضافرة
المعاني متلاقية
الدلالات

قرئ قوله تعالى: ﴿تَكَادُ﴾ بالياء ﴿يَكَادُ﴾، وهي قراءة نافع والكسائي⁽⁴⁾ من غير الاعتداد بالتأنيث لتجرّد الفعل من الضمير المتصل، وقرأ الجمهور بالتأنيث. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة ويعقوب وخلف ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ بالنون⁽⁵⁾ من (انفطر) المطاوع، كقوله تعالى: ﴿إِذَا

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.

(4) ابن مجاهد، السبعة، ص: 413.

(5) ابن مهران، البسيط، ص: 291.

السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ [الانفطار: 1]، أمّا قراءةٌ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبي جعفر ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ فهي من بابِ التَّضْعِيفِ الدَّالُّ على تكرارِ الفعل⁽¹⁾.

معنى حرف (من) ودلالته:

أفاد حرف الجرّ (من) في قوله تعالى: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ التَّعْلِيلَ وَالسَّبَبِيَّةَ؛ فَإِنَّ تَفَطَّرَ السَّمَوَاتِ حَاصِلٌ بِسَبَبِ مَقُولَتِهِمْ؛ فَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿شَيْئًا إِذَا﴾، الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ: ﴿أَتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾⁽²⁾، وَهُوَ الْأَوَّلَى بِالْقَبُولِ.

بلغة التعبير بالمضارع ﴿وَتَنْشَقُّ﴾:

لهول هذه الكلمة صَوَّرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْمَشْهَدَ كَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْشَقُّ نَصْفَيْنِ، وَهَذَا هُوَ شَأْنُ الصِّيغَةِ الْمَضَارِعِيَّةِ فِي تَصْوِيرِ الْحَدَثِ كَأَنَّهُ حَاصِلٌ اللَّحْظَةَ، تَقْرِيبًا لَصُورَتِهِ إِلَى أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ سَيَكُونُ فِي نَهَايَةِ الْعَالَمِ، فَاللَّهُ ﷻ لَا يَخْبِرُ عَنْ أَمْرٍ بِالكَادِ وَقَوْعِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَاحْتِمَالَ وَقَوْعِهِ حَاصِلٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

نكتة التعبير بصيغة الانفعال للأرض والتفعل للسموات:

عَبَّرَ عَنْ تَأَثُّرِ الْأَرْضِ بِمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْقَوْلِ الدَّالِّ عَلَى الشَّنَاعَةِ وَالْقُبَاحَةِ وَالْجَرَاءَةِ بِاتِّخَاذِهِ وَلَدًا ﷻ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ فَاخْتَارَ صِيغَةَ الْانْفِعَالِ (الانشقاق) لِلدَّلَالَةِ عَلَى انْتِفَاءِ الْكَثْرَةِ فِي الْمَفْعُولِ⁽³⁾؛ لِأَنَّ التَّشَقُّقَ دَالٌّ عَلَى الْكَثْرَةِ، وَلَا كَثْرَةَ هُنَا.

وَعَبَّرَ عَمَّا يَحْدُثُ لِلسَّمَاوَاتِ بِمَوْجِبِ كَلِمَتِهِمُ الْعَظِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ فَقَالَ: ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾⁽⁴⁾، فِيمَا جَاءَ مَعَ الْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَنْشَقُّ﴾،

سبب تَفَطَّرِ
السَّمَاوَاتِ
الْقَوْلَةُ الْقَبِيحَةُ

الإيماء إلى
أحداث القيامة
وكيفية حصولها

(1) الرمخشري، الكشف: 44 / 3.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 16.

(3) الألوسي، روح المعاني: 454 / 8.

(4) على قراءة من قرأ بصيغة التفعل لا بصيغة الانفعال، كما تقدّم.

والجوابُ عن ذلك أنَّ التفطَّرَ تفَعَّلَ يدلُّ على تكثيرِ الفعلِ وهو أوضح مع السَّمَاوَاتِ وذلك لقداستها، وعدم حصولِ العصيانِ فيها، فلم يكن لها عهدٌ بالمعصية؛ فتأثَّرها أكبرُ من تأثَّرِ الأرضِ بالمعصية⁽¹⁾، كما أنَّ الانفطارَ مستعملٌ فيها.

نكتة تقديم ﴿السَّمَوَاتِ﴾ على الانفطار وتأخير ﴿الأَرْضِ﴾ عن الانشقاق:

قَدَّمَ ذِكْرَ السَّمَاوَاتِ - التي هي موضعُ العنايةِ الإلهية - على الفعلِ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ لبيانِ صعوبةِ الحدثِ، وهولِ المشهدِ، وعظمِ المقولةِ التي جاؤوا بها حتَّى لكَأَنَّ السَّمَاوَاتِ على عَظَمَتِهَا وسَعَتِهَا وتعدُّدها يتفَطَّرْنَ منه، وتقديمِ السماواتِ يفيد التشويقَ لمعرفة الخبرِ، فلما جاء الإخبارُ عن الأرضِ بدأ بالفعلِ باعتبار توقُّعه، ومعرفة الذي سيُقالُ قياساً على السماواتِ.

دلالة جمع ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وإفراد ﴿الأَرْضِ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ عن ﴿السَّمَوَاتِ﴾ جمعاً، فيما جاءَ عن ﴿الأَرْضِ﴾ مفرداً، وسببُ ذلك أنَّ السَّمَوَاتِ من أجناسٍ مختلفة؛ فكلُّ سماءٍ من جنسٍ مختلفٍ عن الأخرى، أمَّا الأرضُ فكلُّها من جنسٍ واحدٍ وهو التُّرابُ.

وفي مخالفةِ الإفرادِ والجمعِ بينَ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ و﴿الأَرْضِ﴾ لطيفةٌ، وهي مجانسةُ اللفظِ لقريْنِه؛ فإنَّه أوردَ السَّمَوَاتِ جمعاً؛ لاقتِرانه بفعلِ التَّفَطَّرِ المضعَّفِ الدَّالِّ عادةً على الكثرةِ فتشابهها من هذه الجهة، فيما أوردَ الأرضَ مفردةً؛ لاقتِرانها بفعلِ الانفطارِ الذي لا يدلُّ على الكثرة؛ فإنَّ الانفطارَ هو الانشقاقُ نصفينِ فتشابهها من هذه الجهة.

معنى تعريف ﴿الأَرْضِ﴾ ودلالته:

أوردَ لفظَ ﴿الأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَشَقُّ الْأَرْضَ﴾ معرفةً تعريفاً للعهدِ، أي: الأرضُ التي يعيشون عليها، ويعهدونها مستويةً ينتفعون

قَدَّمَ السماواتِ
على الفعلِ
للتشويقِ وأخَّرِ
الأرضَ باعتبارِ
هولِ الحدثِ

السَّمَاوَاتِ
مقتَرنةً بالتَّفَطَّرِ
الدَّالِّ على الكثرةِ
والانشقاقِ معِ
الأرضِ بالإفراءِ

الاعتقادُ الباطلُ
يؤوِّلُ إلى الفسادِ
العامِ

(1) الألويسي، روح المعاني: 8 / 454.

منها، فكيف لو انشقت بمدعاة قولهم المنكر العظيم باتخاذ سبحانه ولداً تعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ فالاعتقاد الباطل يولد الفساد الدائم.

معنى (الواو) ودلالاتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ عاطفة، فهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ على تقدير تكادُ الجبال تسقط⁽¹⁾؛ زيادة في بيان هول الموقف، ومبالغة في التقبيح عليهم؛ بالجمع بين تشقق الأرض، وسقوط الجبال.

بلادة الكناية في فعل ﴿وَتَخَرَّ﴾:

عبر عن السقوط المهول بالخرور في قوله تعالى: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا﴾؛ لأنَّ الخرور هو السقوط دفعةً واحدةً مثلما يخر الحائط⁽²⁾، وما ذاك إلا لعظم المؤثر وهوله، كناية عن تلك الكلمة العظيمة المنكرة في ادعائهم اتخاذ الحق سبحانه ولداً.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿وَتَخَرَّ﴾:

صوّر المشهد المتحرك في سقوط الجبال تصويراً رائعاً، فجاء بصيغة المضارع الدال على الحال بقوله: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا﴾، فكان الجملة قد بلغت من وضوحها وخصوصيتها أنَّ الجبال تخر وتسقط الآن أمام الأعين النواظر بفعل قولهم التي تنكره العقول، وتشمئز منه النفوس، وتعافه القلوب، مع الإيماء إلى احتمال وقوع ذلك في المستقبل إن بقوا على مقالتهم تلك دون ارعواءٍ عنها.

تعريف ﴿الْجِبَالُ﴾، وجمعها:

التعريف في لفظ ﴿الْجِبَالُ﴾ للاستغراق؛ ففضاعة كلمتهم تجعل الجبال أي جبال، تخر منها، وإن تعددت مجموعة، والذي يظهر أنَّ الجمع يستغرق جميع جبال الأرض، كما أنَّ الأرض كلها ستتشقق.

عطف على ما سبق أي تكادُ الجبال أن تسقط

سقوط الجبال دفعةً واحدةً دليل الغضب المهول

تصوير لسقوط الجبال كأنه حاصل اللحظة

خرور الجبال مشتغرق لجميع جبال الأرض

(1) بهجت عبد الواحد، الإعراب للفصل: 68 / 7.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 134 / 3.

ارتباط الفساد
الحسوس
بالفساد
الاعتقادي

بلادة القيد بالمصدر ﴿هَذَا﴾:

الهدُّ من قوله تعالى: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ بمعنى أن يهدم البناء، وهو مصدرٌ للفعْل هَدَدْتُ⁽¹⁾ منصوبٌ على أنه مفعولٌ مطلقٌ بياناً لنوع الخرور والسقوط، أي: سقوط الهدم شظايا وقطعاً⁽²⁾، وفيه إشارة إلى أن قولهم المأفوك هو سبب هدم الجبال، كما أن فيه إشارة ناصعة إلى أن ما يحصل في المحسوسات من فسادٍ فهو ناشئٌ عن فسادٍ اعتقاديٍّ.

توجيه اختلاف النحاة في إعراب ﴿هَذَا﴾:

حال أو مصدر
أو مفعول له
حاصله تقرير
لوصف الإِدِّ

اختلف النحاة في الاسم المنصوب من قوله تعالى: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا﴾، بين أن يكون حالا للجبال، وهو مصدرٌ مؤكَّدٌ محذوفٌ على معنى (تُهدُّ هَذَا)، وبين أن يكون مصدرًا من المبني للمفعول، مؤكَّدًا لتخرُّ معناه التَّهْدِمُ، كأنه قيل: وتخرَّ الجبالُ خرورًا، وبين أن يكون مصدرًا منصوبًا على الحالية بمعنى المفعول على تقدير مهذودٍ، وبين أن يكون مفعولًا لأجله دالًّا على العلة، أي: لأنها تُهدُّ، وحاصلُ خلافتهم أنه تقريرٌ وتحقيقٌ لكونه إِدًّا، وهو الدَّاهيةُ والأمرُ العظيم⁽³⁾.

تعليل جملة ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ للأفعال المتقدمة:

رَبِّ مقالة ذميمة
بشأنها تقع
أحداث جسيمة

تقع جملة ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ موقع التعلُّق بكلٍّ من جملة ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾، وجملة ﴿وَتَنْشَقُّ﴾، وجملة ﴿وَتَخَرُّ﴾ على أن حرف الجرِّ محذوفٌ وهو اللام⁽⁴⁾، والمعنى حصول كل هذه الأفعال المهولة من التَّفَطَّرِ والانشقاقِ والخرِّ بسبب مقالتهم الذميمة في ادِّعائهم أن لله ولدًا.

(1) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 461.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 282.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

معنى ﴿أَنْ﴾ ودلالته:

﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ حرفٌ مصدرِيٌّ⁽¹⁾، جيءَ به لمعنى التأكيدِ ممَّا أُفيدَ من الجارِّ والمجرورِ من قوله: ﴿يَتَفَطَّرَنَّ مِنْهُ﴾، وزيادةُ بيانٍ لمرجعِ الضميرِ المجرورِ اعتناءً به⁽²⁾.

مناسبة استعمال مفردة ﴿دَعَا﴾:

لَمَّا كَانَ معنى ﴿دَعَا﴾ هو نسبةُ الولدِ إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهو كالادِّعاءِ إلى بني فلانٍ وفلانٍ، وهو الانتسابُ إليهم كقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَنَّهُمْ﴾ [الأخزاب: 5]⁽³⁾، استعملَ هذا الفعلَ، ولم يستعملْ غيره ممَّا يرادُّفه في المعنى، مثل (زعموا) و(ادعوا) وغيرهما.

مشابهةُ (دَعَا)
لمعنى نسبوا
الولدَ

بلغة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

لَمَّا خَاطَبَهُم الحقُّ سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ عدَلَ عن خطابِهِ إلى الغيبةِ بقوله: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ على طريقة الالتفاتِ، وتلوينِ الخطابِ القرآنيِّ، والغايةُ من هذا العدولِ الإعراضُ عن خطابِ هؤلاءِ، وتحقيقاً لشأنهم، وزيادةُ تسجيلٍ عليهم بالجرأةِ على الله، والتَّعرضِ لسخطه وتوبيهٍ على عظيمِ ما قالوا⁽⁴⁾، وما كانَ منهم بدعواهُم اتِّخاذه سبحانه ولداً.

التفاتٌ فيه
تحقيرٌ لشأنهم
لجرأتهم وتنبيةٌ
على عظمِ
قولهم

دلالة لام الجرِّ، وغرض تقديم ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ على المفعول:

اللامُ تدلُّ على الملكِ، وقَدَّمَ الجارِّ والمجرورَ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾؛ لإفادة الاختصاصِ والحصْرِ، فكأنَّهم دعوا للرَّحْمَنِ لا لغيره الولدَ، مبالغةً في ذمِّهم وتقبيحِ فعلهم؛ لأنَّ اختصاصَ الحقِّ سبحانه باتِّخاذِ الولدِ فيه من الشَّناعةِ

تفطُّيحٌ أن يكون
لرَّحْمَنِ ولدٌ
وتشنيعٌ على
قائلها

(1) الخراط، اللجتي من مشكل إعراب القرآن: 2 / 681.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16 / 171.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16 / 171.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 7 / 300.

والفظاعة ما لا يكون لو لم يقدمه، بأن يقال: أن دعوا ولدًا للرحمن، فيحتمل المعنى غير الحصر، ففيه توبيخ وتفضيع أن يكون ذلك للرحمن ﷻ عمدًا يقولون.

لطيفة اصطفاة اسم ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ في تقييد دعواهم الولد:

رحمة الله
سبحانه وسعته
العالمين فكيف
يكون مختصًا
بولدٍ

اصطفى النظم الكريم اسمَ الرَّحْمَنِ في تقييدِ دعواهم، مع تكريره مراتٍ عدّة، وفائدته أنّه هو الرَّحْمَنُ وحده، فهو الجدير بهذا الاسم؛ فالنعم كلها منه أصولًا وفروعًا، وهو من أوجد العالمين، وأوجد لهم جميع ما معهم، فهلاً انكشف بصرُك بأنك وجميع ما عندك عطاء من عطاءاته⁽¹⁾.

ولما كان الحق سبحانه رحيماً بالجميع ذكر في الآية بوصف الرحمة البالغة بقوله: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾، فمن كان هذا وصفه كيف يكون مختصاً بالولد أو بغيره، ورحمته شاملة للعالمين⁽²⁾.

دلالة حذف المفعول الأول للفعل ﴿دَعَا﴾:

اقتصَرَ على
الثاني طلباً
لعموم
والإحاطة

وفي قوله: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ حذف المفعول الأول للفعل ﴿دَعَا﴾ بمعنى: سموا، تقديره: (سَمَوْا مَعْبُودَهُمْ وَلَدًا لِلرَّحْمَنِ)⁽³⁾، فاقصر على أحد المفعولين؛ لإرادة العموم؛ وليدخل في هذا القول كل من ادعى له ولداً.

سرّ إفراد ﴿وَلَدًا﴾ وتنكيره:

أفرد لفظ الولد في قوله تعالى: ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾؛ لأن هذه اللفظة تقع على الواحد والاثنين والجماعة⁽⁴⁾؛ ليكون شاملاً عاماً لكل من يدعي لله ولداً على مرّ العصور والأزمان.

(1) الزمخشري، الكشاف: 45/3.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4689/9.

(3) أبو حيان، البحر المحیط: 302/7.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 997/6.

❖ الفُروقُ المُجَمَّيَّةُ:

الخرّ والهويّ والسقوط:

في قوله تعالى: ﴿وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ عبّر عن سقوط الجبال بهذه الطريقة المروعة فزعاً من كلمتهم المنكرة العظيمة باتّخاذهِ سبحانه ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ فأسند الخرّ للجبال، ولم يعبرّ بالسقوط؛ لأنّ الخرّ هو السقوط المقترن بالصوت الذي يسمّى خريراً⁽¹⁾، فهو ليس سقوطاً مجرداً، فلا يحسن التعبير عن ذلك المشهد بالسقوط حسب، ولم يعبر عنه بالهويّ مع أنّه مقارب له في المعنى، فهو الخلوّ والسقوط، وهو الذهاب في انحدار، وأصله من الهواء بين الأرض والسماء⁽²⁾، يقول تعالى: ﴿وَالْتَجَمَ إِذَا هَوَىٰ﴾⁽³⁾، وعموم لفظ الهوي وما اشتق منه في القرآن الكريم يكون بمعنى النزول أو الهلاك أو الذهاب⁽⁴⁾، وليس ذلك من هذه المعاني مناسبة لخرّ الجبال بمعنى سقوطها بمدعاة ما تفوّه به الكافرون الظالمون.

الإدّ والداهية:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ عبّر عن العجب المنكر من الأمر الشديد بالإدّ، والعجب هو أن يستعظم الشيء؛ لأنّ سببه يخفى عليك⁽⁴⁾، أمّا الداهية فاسم عام لكل ما عظم من الأمور، فقليل عن الفاقرة داهية، وقيل عن الصّاحّة داهية، وكذا الطّامة فهي تطم كلّ شيء، أي: تغمّه وتغطيه⁽⁵⁾، ويفهم من ذلك وقوعها على معانٍ كثيرة، وربّما تجاوز ذلك إلى المدح، وعامة هذه المعاني غير مقصودة في الآية، إنّما القصد التعجب المشوب بالإنكار العظيم؛ فإنهم قالوا

خرّ الجبال
سقوطٌ مقترنٌ
بالصوت والهويّ
نزولٌ أو هلاكٌ أو
عذابٌ

الإدّ تعجبٌ
مشوبٌ بالإنكارِ
العظيمِ
والداهية اسمٌ
جامعٌ لما عظم
من الأمورِ

(1) الراغب، المفردات، ص: 277.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).

(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين الناظر، ص: 638.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 31.

(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 320.

قولاً عظيماً منكرًا تكاد تزول منه الجبال الرواسي من شنع مقاتلتهم
وتفاحش جهالتهم⁽¹⁾.

الانفطار والانشقاق:

جاء بفعلين متباينين في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾، فأَسَدَ التَّفَطَّرَ لِلسَّمَوَاتِ، فيما أَسَدَ فعلُ الانشقاقِ للأَرْضِ، والأصلُ في التَّفَطَّرِ الإخراجُ من العدمِ إلى الوجودِ، كأنَّه يشقُّ عنه فيخرجُ، فيقالُ تَفَطَّرَ الشَّجَرُ إِذَا تَشَقَّقَ بالورقِ⁽²⁾، فَالتَّفَطَّرُ هو مبتدأُ الانشقاقِ، والانشقاقُ مؤذَنٌ بانقسامِ الأرضِ نصفين، فيما يكونُ التَّفَطَّرُ لِلسَّمَوَاتِ قصداً لكثرةِ الشَّقَوقِ فيها بما يعطيه الفعلُ المضعَّفُ من خاصيةِ الكثرةِ، فانشقاقُ الأرضِ واحدٌ، وتَفَطَّرُ السَّمَوَاتُ متعدّدٌ.

الهدمُ والهدمُ:

عَبَّرَ عن سرعةِ تفتتِ الجبالِ بعدَ الخرورِ والسَّقَوطِ بالهدمِ في قوله تعالى: ﴿وَنَخَرُ الْجِبَالَ هَدًّا﴾، فالهدمُ هو إسقاطُ البناءِ على الغايةِ من القوَّةِ والشَّدةِ، والفرقُ بينهما أَنَّ الهدمَ لَكِنَّهُ مَتَّصِفٌ بالواقعِ الشَّدِيدِ لثقلِهِ⁽³⁾؛ فيصدرُ عنه الصَّوْتُ الشَّدِيدُ، وما صدور الصَّوْتِ المفزعِ إِلَّا لانهدامِ البناءِ وتفرُّقه في تسارعٍ⁽⁴⁾، وما ذاك إِلَّا كناية عن عظمِ مقاتلتهم الشَّنيعةِ تلكَ، فخلاصةُ الفرقِ بين اللفظين أَنَّ الهدمَ مشتملٌ على الهدمِ وزيادةٍ.

انشقاقُ الأرضِ
واحدٌ وتَفَطَّرُ
السَّمَوَاتُ
متعدّدٌ متكاثرٌ

الهدمُ هدمٌ مع
الشَّدةِ والصَّوْتِ
كنايةً عن عظمِ
مقاتلتهم

(1) العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 112 / 1.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 407.

(3) الراغب، المفردات: (هدد).

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 34 / 4.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 31، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-73-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 31: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-73-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»